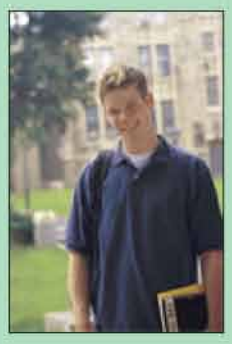

# بيئتنا البشرية
## من منظار الكتاب المقدس

من كتاب: ((المسيحية والقضايا المعاصرة))

جون ستوت

إن الدراسات البيئية حديثة نسبياً. ففي عام ١٩٧٠ فقط استحدثت الحكومة لبريطانية دائرة للبيئة "علم البيئة" و"الموطن" و"المحافظة على البيئة" و"التلوث"، جزءاً من قاموس مفرداتنا اليومي إلا منذ عهد قريب. إن أسباب الإهتمام الحديث بالبيئة ليست خافية على أحد وهي ثلاثة أسباب ترتبط بعضها ببعض.

**أسباب الإهتمام:**

أولاً: "التزايد السكاني"، لقد عُرف منذ قرون بأن عدد سكان العالم يتزايد. إلا أنه منذ الحرب العالمية الثانية فقط أمكن إدراك معدل سرعة التزايد إدراكاً واضحاً، وأمكن التنبؤ عن الآثار الحادة المفجعة للإنفجار السكاني غير المضبوط. يُقال إن عدد سكان الأرض عام ١٨٠٠م بلغ ١٠٠٠ مليون نسمة. وفي عام ١٩٠٠ تضاعف العدد فأصبح ٢٠٠٠ مليون نسمة وفي عام ١٩٨٠ تضاعف مرة أخرى فبلغ ٤٠٠٠ مليون نسمة وأن خمس هذا العدد (٨٠٠ مليون) معدمون فإننا نتساءل بقلق كيف يمكن إطعام ما يزيد عن ٦٠٠٠ مليون نسمة بعد ٢٠ سنة؟

السبب الثاني للإهتمام هو استنفاد الموارد. ففي عام ١٩٧٢ لفت ما يسمى (نادي روما) انتباه العالم إلى موارد الأرض المحدودة. وحتى ذلك التاريخ كان القادة الغربيون يتنبأون عن زيادة سنوية تبلغ ٤ بالمائة. أما في تلك السنة فقد رأوا أنه لا يمكن التوفيق باستمرار الزيادة وبين الموارد المحدودة. حدث ذلك قبل وقوع صدمة ارتفاع أسعار البترول بسنة واحدة فقط. وفي عام ١٩٧٣ أصبحت هذه الحقيقة البغيضة في متناول مدارك الجمهور بفضل الكتاب الشهير "الصغير هو الجميل" الذي كتبه إ. إف. شوماستر وعنوانه الفرعي "دراسة للإقتصاد باعتبار أن للناس شأناً"، وأشار في كتابه إلى الفشل في التمييز بين الدخل ورأس المال حيث يكون هذا التمييز بالغ الأهمية .... وكان مثاله الأول عن "رأس المال الطبيعي" هذا الوقود المستخرج من باطن الأرض: "فهذا الوقود لم يصنعه البشر ولا يستطيعون إعادة معالجته فإذا ما نفد، نفد إلى الأبد. وكان مثاله الثاني الطبيعة الحية (عوالق المحيطات وكساء الأرض الأخضر والهواء النقي....إلخ) التي يدمر التلوث معظمها... وكتب يقول: "إذا أسرفنا في استخدام الوقود المستخدم هددنا حضارتنا بالخطر، أما إذا أسرفنا في استخدام رأس المال المتمثل بالطبيعة الحية من حولنا، فإننا نهدد الحياة



جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

نفسها بالخطر، وتابع قائلاً: "تكمن حماقة النظام الصناعي الحديث في أنّه يستهلك الأساس الذي قام عليه هذا النظام. وإذا استخدمنا لغة عالم الاقتصاد، فإن النظام الصناعي يعيش على رأس مال غير قابل للتعويض نفرح به وكأنه دخل"[1].

إن المشكلة الثالثة المتعلقة بهذا الموضوع هي التكنولوجيا المنطلقة بسرعة خاطفة. إن التقنية الحديثة التي دعاها "ألفن توفلر" "الموجة الثالثة" (بعد الثورتين الزراعية والصناعية)، ربما تكون قد جاءت في الوقت المناسب لإنقاذنا من ورطتنا البشرية. ولكن التقنية الحديثة، (بإستثناء تطوير شريحة السيليكون والكمبيوتر silicon chip and micro processor) جشعة جدّاً إلى الوقود وبالحقيقة هي التي أوجدت أزمة الطاقة الأخيرة. كما أنها تبدو أحياناً كغول إذا ما أفلت من عقاله دمّر صانعه. وها نحن الآن نتعلم كم هو دقيق توازن الطبيعة وكم يسهل إفساده.

إنني أفهم أن هذه العوامل بالإضافة إلى مسائل توفير الطعام واستثمار رأس المال والتلوث وتعقيد تداخلاتها، قد قادت إلى التنبؤات التي تمت في مطلع السبعينات (١٩٧٠). ففي عام ١٩٧١ نُشر كتاب ديناميات العالم، تأليف جي . و . فورستر. وفي عام ١٩٧٢ نُشر كتاب "حدود النمو" تأليف دنيس ميدوز وآخرين. وموّل هذا الكتاب معهد نادي روما، وقد صدر الكتابان عن معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، واستخدما الحاسبات، وقدما بطريقتهما المختلفتين نموذجاً لعالم المستقبل متشائماً جداً منذراً بالخطر تقريباً ومطالباً بأن يكون النمو صفراً كالحل الوحيد.

إلا أنه عام ١٩٧٣ قام فريق من عدة اختصاصات في وحدة بحث سياسة العلم في جامعة سكس، برئاسة الدكتور كريستوفر فريمان، باخضاع هذين النموذجين للنقد المحص ونُشرت النتائج في شباط ١٩٧٣ في (عدد خاص) من مجلة (المستقبليات) عنوانه "الحدود القصوى للجدل الدائر حول النمو"[2] لقد شارك هؤلاء العلماء باحثي معهد ماساشوستس التكنولوجي اهتمامهم الملّح بمستقبل العالم، لكنهم انتقدوا استنتاجاتهم معتقدين بأنها مبنية على افتراضات قابلة للنقاش إلى درجة كبيرة. وقد استندت حجة معهد (م. م. ت) على (١) تخمينات مقبولة ظاهريّاً بشأن مستقبل العالم، بدلاً من أن تستند على حقائق دقيقة من العالم الواقعي (وهي غير متيسرة). (٢) قيم مثالية أثرت في انتقائم وتفسيرهم "للوقائع الوثيقة بالموضوع"، وإهمالهم للوقائع "غير الوثيقة بالموضوع" (بحسب فريق ساسكس يرجح أن تعيين الحدود القصوى للنمو بالإعتبارات السياسية والإجتماعية أكثر مما تتعين بالإعتبارات الطبيعية). (٣) تقدير يبخس امكانات التقدم التقني المستمر. وما كان بوسع تنبؤ حدث عام ١٩٧١ أن يحسب حساباً لما سيطرأ على النفط أو الطاقة النووية. ولا تستطيع التنبؤات المعاصرة، بالمثل، أن تُنبىء بأي درجة من الدقة، بالتطور المستقبلي للطاقة الشمسية أو الاندماج النووي.

---

[1]- E. F. Schumacher, Small is Beautiful (1973; Abacus 1974), pp. 11- 16.
[2]- Futures, vol. v, no. 1 (February 1973), published by I. P. C. Business press.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

بالرغم من هذا الجدل الأكاديمي، فقد أوكل الرئيس كارتر عام ١٩٧٧ إلى لجنة خاصة مهمة إعداد التقرير العالمي ٢٠٠٠ لكي يُرفع إلى الرئيس. وفي عام ١٩٨٠ تم رفع التقرير إلى الرئيس ريجان (ويُقال إنه استخف به). ووضع لهذا التقرير عنوان فرعي هو (الدخول إلى القرن الحادي والعشرين) واعتمد التقرير على تقديرات احصائية مبنية على الحاسب الالكتروني (بافتراض أن الاتجاهات الحالية ستستمر)، وادعى بأنه ليس تخمينياً بل جازماً. لقد سرد المشكلات الرئيسية بصدق وشجاعة: عالم يزيد عدد سكانه عن ٦،٠٠٠ مليون، يعيش خُمس أسداسهم في الجنوب النامي، إزالة مساحات شاسعة من الغابات مما يؤدي إلى زيادة الصحارى وتناقص في الماء العذب، وانقراض نصف مليون نوع من الحيوانات والنباتات، وازدحام المدن بسكانها إلى درجة تفوق التصوّر وفي مقدمتها مدينة مكسيكوسيتي العملاقة بتعداد سكانها البالغ (٣٠) مليون نسمة أضخم مدينة في العالم.

فهل لدى المسيحيين ما يُسهمون به في هذا النقاش المثير للجدل؟

## المنظور الكتابي:

إن الطريقة الكتابية لفهم قضية البيئة هي أن نطرح السؤال التالي: لِمَن الأرض؟ هذا السؤال ابتدائي بصورة مضللة. فكيف نجيب عنه؟ الجواب الأول صريح ونجده في مزمور ٢٤: ١ "للرب الأرض وملؤها"، فالله خالق الأرض، وبموجب حق الخلق فهو مالكها. ولكن هذا الجواب جزئي فقط. فمزمور ١١٥: ١٦ يُفيد: "أن السموات سموات للرب. أما الأرض فأعطاها لبني آدم". إذن الجواب الكتابي المتوازن على سؤالنا هو أن الأرض تخص الله والإنسان معاً – تخص الله لأنه صنعها، وتخصنا لأنه اعطاها لنا. لكن ليس، طبعاً، بمعنى أنه تخلى عنها لنا تماماً بحيث أنه لم يحتفظ بأي حقوق فيها أو سيطرة عليها، بل بمعنى أنه منحها لنا لكي نحكمها نيابة عنه. فملكيتنا للأرض هي بمثابة ملكية المستأجر، لا ملكية المالك المطلق. نحن مستأجرون، ويظل الله نفسه (بالمعنى الحرفي الدقيق) "صاحب الملك" سيد الأرض كلها.

هذه الحقيقة المزدوجة (حقيقة أن الأرض له ولنا معاً) تتضح أكثر جلاء في تكوين ١و٢. ففي عدة آيات من تكوين ١ ترد كلمة (الأرض):

الآية ١٠: (ودعا الله اليابسة "أرضاً").

الآيات ١١، ١٢: (وقال الله "لتنبت الأرض عشباً" وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً).

الآية ٢٤: (وقال الله، "لتخرج الأرض ذوات أنفس حية.. وكان كذلك").

الآية ٢٦: (وقال الله، نعمل الإنسان على صورتنا..، فيتسلطون... على كل الأرض").

الآية ٢٨: (وباركهم الله وقال لهم.. "املأوا الأرض وأخضعوها").

استناداً إلى هذه النصوص الكتابية يمكننا أن نؤكد ثلاث نقاط:

أولاً: لقد منح الله الإنسان سلطاناً على الأرض. ونلاحظ التصميمين الواردين في الآية ٢٦ "نعمل الإنسان على صورتنا" "فيتسلطون على الأرض". ونلاحظ أيضاً العملين الإلهيين اللذين عبّرا عن تنفيذ تصميمه:



جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

"فخلق الله الإنسان على صورته" و(قال الله لهم... "املأوا الأرض وأخضعوها" (الآيتان ٢٧و ٢٨). وهكذا جهزت الكائنات البشرية منذ البداية بتفرد مزدوج: فنحن نحمل صورة الله (التي تتكون من صفات عقلية، أخلاقية واجتماعية وروحية تمكننا من معرفة الله). ونحن نستخدم السلطة على الأرض ومخلوقاتها.

بالحقيقة تعود سلطتنا الفريدة على الأرض إلى علاقتنا الفريدة مع الله. لقد رتّب الله نظاماً بل تسلسلاً هرمياً للخليقة. فجعل الإنسان في الوسط بينه، بوصفه الخالق، وبين بقية الخليقة من الجمادات والأحياء. فمن بعض النواحي نحن واحد مع بقية الطبيعة، إذ أننا جزء منها ومرتبتنا هي مرتبة المخلوقات. ومن نواح أخرى نحن متميزون عن الطبيعة، إذ أننا خُلقنا على صورة الله ومُنحت لنا السلطة. نحن من الناحية البيولوجية نشبه الحيوانات. فنحن مثلاً نتنفس مثلها ("ذوات أنفس حية" تك ١: ٢١ و٢٤ و٢: ٧) ونأكل مثلها (الآيتان ٢٩ و٣٠) نتكاثر مثلها ("أثمروا واكثروا" الآيتان ٢٢ و٢٨). ولكننا أيضاً نتمتع بمستوى من الخبرة أرفع منها، حيث لا نشبه الحيوانات بل الله. إذ أننا قادرون على التفكير والاختبار، والخلق والمحبة والصلاة وممارسة السلطة. وهذا هو موقعنا الوسط بين الله والطبيعة، بين الخالق وبقية خليقته. ونحن نجمع بين الاعتماد على الله والسلطة على الأرض. ويعلّق "جرهارد فون راد": "مثلما يفعل ملوك الأرض والأقوياء، للدلالة على ادعائهم بالسلطة، فيقيمون التماثيل لأنفسهم في مقاطعات أمبراطوريتهم التي لا يظهرون فيها عادة، هكذا وُضع الإنسان في الأرض على صورة الله لسلطان الله".[1]

ويمكن القول بصورة عامة إن الإنسان أطاع أمر الله بأن يملأ الأرض ويُخضعها. في البداية كان تقدّمه بطيئاً بينما تدرّج من جمع الطعام إلى الزراعة. وتعلّم كيف يحرث التربة ويحمي المناطق المزروعة من غزوات الحيوانات، ويستخدم نتائج الأرض ليؤمّن لنفسه وعائلته الطعام والكساء والمأوى. وتعلّم بعد ذلك تدجين الحيوانات وتسخيرها لخدمته، بحيث تُخفف من تعبه وتجلب له المسرة أيضا. ثم تعلّم أسرار الطاقة التي حبسها الله داخل العالم المخلوق في النار وفيما بعد في الماء والبخار، في الفحم والغاز والنفط، والآن في اليورانيوم والذرّة وشريحة السيلكون الجبارة.

ففي كل هذا، في بحث الإنسان واكتشافه واختراعه، في مجالات البيولوجيا والكيمياء والفيزياء وغيرها، وفي كل الانتصارات التي أحرزتها تقنيّته، ما زال الإنسان يطيع الله ويمارس السلطة التي منحها له. فلا مجال للشك (على الأقل من حيث المبدأ) في أن الإنسان قد تصرف كبروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة. فخلال سيطرة الإنسان التدريجية على الأرض لم يقتحم دائرة الله الخاصة ويغتصب القوة منه، ولم يتخيل قط أنه قد ملأ الثغرات التي اعتاد الله أن يختبيء فيها، فأصبح قادراً على تفسير كل شيء ولم يعد بحاجة إلى الله بعد الآن. من الحمق استخلاص هذه النتائج. ربما لم يعرف الإنسان ذلك، وإنما كان يمارس السلطة التي منحها الله له. فتطوير الأدوات والتقنيّة، وزراعة الأرض، والتنقيب عن المعادن، واستخراج

[1]- Gerhard von Rad, Genesis (1956; SCM, 1963), p. 58.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

الوقود، وبناء السدود على الأنهار لتوليد الطاقة الكهربائية، وتسخير الطاقة الذرية كل هذه إتمامات لأمر الله الأولي. فقد زوّد الله بكل الموارد لتأمين ما نحتاجه من الطعام والماء والثياب والمأوى والطاقة والدفء، ومنحنا السيطرة على الأرض التي اختزنت فيها هذه الموارد.

ثانياً: إن سلطتنا سلطة تعاونية. فأثناء ممارستنا للسلطة التي منحها الله لنا، لسنا "نخلق" عمليات الطبيعة، لكننا نتعاون معها. وواضح من تكوين (١) أن الأرض خُلقت لتثمر قبل أن يُطلب من الإنسان أن يملأها ويُخضعها. صحيح أن الإنسان يستطيع أن يجعل الأرض أكثر إثماراً. ويستطيع أن يُزيل الصخور من التربة ويحرثها ويسقيها ويخصبها. ويستطيع أن يزرع النباتات داخل البيوت الزجاجية لتحجز المزيد من طاقة الشمس. ويستطيع أن يحسن استعمال التربة باتباع دورات زراعية. ويستطيع أن يحسّن ماشيته بالاستيلاد الانتقائي. ويستطيع أن ينتج حبوباً هجنية ذات نتاج ضخم إلى حد لا يصدق ويستطيع استخدام الميكنة في الحصاد والحرث باستخدام حصادات مركبة ضخمة. ولكن في كل هذه النشاطات يكون دوره مجرد تعاون مع قوانين الإثمار التي كان الله قد أنشأها. يُضاف إلى ذلك أن خبرات "الكدح" في الزراعة التي اختبرها الإنسان بسبب "لعنة" الله للأرض (تكوين ٣: ١٧) لم تلغ عنايته المستمرة المشمولة بـ "بركة" الله (مزمور ٦٥: ٩ وما يليها" وإنما عدلتها فقط.

صحيح أيضاً، أن الإنسان يسيطر على الأشياء بل يزيد من سرعة انتاجها اصطناعياً. ولكن هذا التحكم هو تحكم اصطناعي في عمليات "طبيعية" في أساسها. إن الإنسان يتعاون مع الله. وهذا إقرار بأن ما يمنحه الله هو "الطبيعة"، أما ما نفعله نحن بها هو "الحراثة" أو "الرعاية".

حقاً إن الله تواضع بحيث يحتاج إلى تعاوننا (وبالتحديد لإخضاع الأرض ولحراثة التربة). ولكن يجب علينا أن نتواضع فنقرّ بأن سلطتنا على الطبيعة ستكون عميقة تماماً لو لم يجعل الله الأرض مثمرة، ولو لم يستمر في "إعطاء النماء".

إن استمرار الطبيعة والحراثة، والعجز الإنساني والبراعة الإنسانية الفائقة، والبراعة والعمل، والإيمان والشغل، يلقي ضوءاً على ما جرت العادة في هذه الأيام على قوله وهو أن الإنسان "قد بلغ سن الرشد" وأنه (بفضل بلوغه الذي اكتسبه مؤخراً) يستطيع أن يستغني عن الله. والحقيقة أن الجنس البشري قد بلغ سن الرشد من الناحية التقنية. وقد طوّر خبرة غير عادية في ترويض الطبيعة والتحكم فيها واستخدامها. فهو بهذا المعنى سيّد، كما قصد الله وكما قال له الله. ولكنه أيضاً "ولد" من حيث اعتماده الكلي على عناية الله الأبوية الذي يعطيه أشعة الشمس والمطر، ومواسم مثمرة. ويقتبس إ. إف. شوماتشر عن توم ديل وفرنون جيل كارتر قولهما في هذا المجال: "إن الإنسان سواء كان متحضراً أو همجياً، ابن



جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

للطبيعة فهو ليس سيد الطبيعة. وينبغي أن يجعل تصرفاته مطابقة لبعض القوانين الطبيعية إذا أراد أن يحتفظ بسيطرته على بيئته" [1].

ثالثاً، إن سيادتنا سيادة منتدبة، وبالتالي فهي سيادة مسؤولة. أي أن سيادتنا على الأرض ليست من حقنا، وإنما هي فضل من الله. فالأرض "تخصنا" ليس لأننا صنعناها أو لأننا نملكها، ولكن لأن صانعها ائتمننا عليها لنعتني بها.

ينجم عن هذا نتائج هامة. فإذا كنا نعتبر الأرض مملكة، فلسنا ملوكاً نحكم أراضينا بل نحن نواب الملك الذين نحكم الأرض لحساب الملك. لأن الملك لم يتنازل عن عرشه. أو إذا كنا نشبّه الأرض بعزبة في الريف فلسنا نحن مالكي العزبة بل نحن وكلاء المزرعة نديرها لحساب صاحبها. إن الله يجعلنا بالمنى الحرفي، "مكلفين بالإعتناء بملكه".

إن استمرار ملكية الله للأرض (للكون بالحقيقة) واشرافه عليها بعناية يؤكّد مراراً في الكتاب المقدس. لقد تأملنا سابقاً التأكيد الوارد في مزمور ٢٤: ١ على أن "الأرض للرب". وهذا يشمل كل الأحياء التي تقطن على الأرض: "لأن لي حيوان الوعر والبهائم على الجبال الألوف. قد علمت كل طيور الجبال ووحوش البرية عندي" (مزمور ٥٠: ١٠و ١١). وفي العظة على الجبل وسّع يسوع السلطان الإلهي إلى مدى أبعد_ من أكبر المخلوقات إلى أصغرها. فهو من جهة يجعل "شمسه" السلطان الإلهي تشرق "لأنها تخصه". ومن جهة أخرى يطعم الطيور، ويكسو الزنابق وعشب الحقل (متى ٥: ٤٥و ٦: ٢٦و ٢٨و ٣٠). وهكذا فهو يعضد جميع خليقته، وعندما يأتمننا عليها، فهو لم يتخلَ عن مسئوليته تجاهها.

ولا بد أن هذا ما جعل حتى كنعان "أرض إسرائيل" لا تخص إسرائيل. حقاً إنها كانت "الأرض الموعودة" لأن الله وعد بأن يُعطيها لنسل إبراهيم. وأعطاها في الواقع. ولكن الأفراد امتلكوا الأرض كممثلين عن سبطهم. ولم يكن يُسمح لأي فرد بأن ينقل الأرض خارج البسط الذي ينتمي إليه (عدد ٣٦: ٥ وما يليها)، ولم يكن مسموحاً لأي فرد أن يبيع الأرض بيعاً مؤبداً. فكل خمسين سنة، في سنة اليوبيل، كان ينبغي إعادة الأرض إلى مالكها الأصلي. وكان قصد الله من ذلك أن يعلمهم أن الأرض ما زالت ملكاً له، وأنه لم يكن لأي كائن بشري حقوق الملكية المطلقة. صحيح أن حقوق الملكية كان معترفاً بها، فلم تكن السرقة ممنوعة بمقتضى الناموس فحسب بل الاشتهاء أيضاً. ولكن كان على المالكين أن يتذكروا حقيقتين أساسيتين: أولاً، لقد كانوا مقيمين مؤقتين فقط: "الأرض لا تباع بتة، لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي".

ثانياً، كان عليهم ألا يحتفظوا لأنفسهم بكل غلة الأرض بل يهتموا بقريبهم المحتاج ويعطوه منها. وهذا ما بيّنه البروفسور مارتن هنكل "كان حق الملكية مبدئياً خاضعاً برعاية الأفراد الأضعف في المجتمع" [2].

---

[1]- Tom Date and Vernon Gill Carter, Topsoil and Civilization (1955) quoted by E. F. Schumacher in Small is Beautiful, p. 84.

[2]- Martin Hengel, Property and Riches in the Early Church (1973; Fortress and SCM, 1974), p. 12.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

وإنه لأمر يثير الانتباه أن البابا جون بول قد لخص هذه المسألة بتعابير مماثلة. ففي منشوره البابوي حول "عمل الإنسان" (١٩٨١) ابتعد عن "الجماعية" الماركسية وعن "الرأسمالية" التحررية. فوضح أن السؤال في الحالة الأخيرة هو كيف "يفهم حق الملكية" وتابع "إن التقليد المسيحي لم يعتقد أبداً أن هذا الحق مطلق لا يمكن المساس به. بل بالعكس فهمه دائماً ضمن سياق أوسع هو الحق المشترك للجميع في استخدام خيرات الخليقة كلها: إن حق الملكية خاضع لحق الاستخدام المشترك، بناء على الحقيقة الواقعية وهي أن خيرات الأرض من نصيب كل إنسان" [1].

إذا كانت سلطتنا على الأرض هي انتداباً من الله، بقصد تعاوننا معاً ومشاركتنا للآخرين في إنتاجنا، فسوف نعطيه حساباً عن وكالتنا. ولا يحق لنا أن نفعل ما نشاء ببيئتنا الطبيعية، إنها ليست ملكاً لنا بحيث نعاملها كما يروق لنا. و"السلطان" ليس مرادفاً لـ "التدمير". وما دمنا قد اؤتمنا عليها فعلينا أن نديرها بصورة مسؤولة ومنتجة لصالحنا ولصالح الأجيال التالية أيضاً.

## النقاش حول صيانة البيئة:

الائتمان يتضمن الصيانة. قد يثبت في النهاية أن الخطر الأعظم الذي يهدد الجنس البشري ليس الحروب النووية، بل الخطر في زمن السلم، أي إتلاف موارد الأرض الطبيعية، إما بسبب حماقة الإنسان أو بسبب جشعه. فكل حياة على وجه الأرض تعتمد على الكرة الحية، تلك الطبقة الضيقة من الماء والتربة والهواء التي نعيش ضمنها. ومع ذلك فإن سجل صيانتنا لها لا سيما في هذا القرن، ليس سجلاً حسناً.

هناك فدادين واسعة من التربة في أمريكا وأفريقيا وآسيا كانت ذات يوم تربة زراعية خصبة أصبحت اليوم بسبب سوء الاستعمال صحاري، لا يمكن تغييرها، أو مناطق كثيرة الجفاف. وزادت صحاري العالم بنسبة ١٥٠ بالمئة خلال المئة سنة الماضية، بحيث أصبح ٥٠% من سطح اليابسة صحراء أو شبه صحراء. ويمكن أن تدوم موارد الفحم ألفي سنة أخرى، أما الغاز الطبيعي والنفط فلن يدوما طويلاً في القرن الحادي والعشرين. إن رمي فضلات النشاط الإشعاعي النووي يسبب قلقاً خطيراً لدى الجمهور. وبحيرة إري (التي أعطت في الخمسينات سبعة ملايين رطل انجليزي من الأسماك كل عام) أصبحت في الستينات شديدة التلوث بسبب السموم الصناعية حتى مات فيها كل كائن حي. وعودتها الآن إلى الوضع السوي تتطلب تضافر الجهود. وكثير من الأنهار عانت نفس المصير الذي عانته البحيرات. وكتب الدكتور "رون ألسن دون" إن أفظع الأنهار تلوثاً هو نهر الراين لأن الفضلات الكيماوية التي ترميها الصناعة الألمانية في النهر يومياً (لا سيما الكلور والسولفات والكالسيوم والمغنيسيوم والنترات) بلغت بجملتها عام ١٩٦٣ حوالي ٦٢،٠٠٠ طن يومياً [2]، ثم هناك المحيطات. فلا يمكن التنبؤ بمفعول المبيدات على الطحالب والعوالق التي نعتمد عليها للحصول على الأكسجين. وفي الولايات المتحدة وحدها ينفث في الجو كل عام حوالي

[1]- Laborem Exercens, Pope John Paul II's Encyclical Letter on "Human Work" (Catholic Truth Society, 1981), pp. 50- 51.
[2]- Ron Elsdon, Bent World, Science, the Bible and the environment (IVP, 1981), pp. 20- 21.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

١٤٢ مليون طن من الدخان والغازات الضارة. وكل عشر دقائق تنفث الطائرة النفاثة ذات الأربعة محركات اثنان ونصف طناً من غاز الكربون. أما بالنسبة للإسراف في استعمال لب الخشب لصنع الورق، فإن نسخة واحدة من طبعة يوم الأحد لجريدة نيويورك تايمز تستهلك ١٥٠ فداناً من أرض الغابات. بالحقيقة قرأت أن ١٤ فداناً من غابات العالم تدمر كل دقيقة [١]، ويقتبس البروفيسور رولاندموس الخاطر التالي "لو اشترى كل إنسان جريدة يومية لدُمرت كل غابات الأرض خلال ٣٠ سنة" [٢]. لا شك أن بعض هذا التدمير للبيئة يحدث نتيجة الجهل الإنساني (مثلاً الأراضي التي أصبحت جافة كثيرة الغبار في مطلع هذا القرن). ومع ذلك فإن مجلس كنيسة انجلترا للمسؤولية الاجتماعية لم يكن مبالغاً عندما قال "إن نهب الأرض تجديف، وليس مجرد خطأ في المحاكمة أي نتيجة غلطة" [٣] إنه خطيئة ضد الله والإنسان أيضاً.

في نفس الوقت، لم يقبل جميع المسيحيين المسؤولية التي وضعها الكتاب المقدس علينا. بل إن بعضهم استخدموا قصة سفر التكوين ليبرروا عدم مسؤوليتهم. بينما كان أحد قسوس كنيسة اسكتلندا في مقدم الشاطىء ومعه بندقية رش، وجد حيوانين يلعبان في منطقة حدود المدّ فأطلق عليهما الرصاص. فقتل أحدهما فوراً وقُتل الآخر بسبب جراحه وهو يتخبط في الماء. وعبّر القس عن أسفه ولكنه ذكر الكتاب بأن "الرب أعطى الإنسان سلطاناً على وحوش البرية.." [٤]. وكما علق البروفسور س. ف. د. مول "أن الجريمة المرتكبة ضد الإدراك ورقة الشعور لا يمكن الدفاع عنها بالرجوع إلى مجرد نصوص" [٥].

ولكن ماذا بشأن النصوص الواردة في سفر التكوين؟ هل نحن واثقون بأننا فسّرناها تفسيراً صحيحاً؟ أو هل نقّاد المسيحية على حق في قولهم: إنه ينبغي إلقاء اللوم على هذه الآيات في انعدام المسؤولية البيئة المعاصرة؟ وعلى سبيل المثال كتبت المؤرخة الأمريكية لن هوايت من جامعة كاليفورنيا في بركلي تقول: "لم توطد الكنيسة ثنائية الإنسان والطبيعة فقط لكنها أصرت أيضاً على أن الله أراد أن يستثمر الإنسان الطبيعة لأجل غاياته الخاصة... فالمسيحية تتحمل قدراً ضخماً من الجرم" [٦]. وكان إيان ل. مك هارج أكثر صراحة، وهو اسكتلندي أمضى طفولته متنقلاً بين بشاعة جلاسجو وجمال اللسان البحري الكائن عند مصب نهر كلايد والهضاب والجزر الغربية. وأصبح مخططاً للمدن وعالم بيئته ومؤسس ورئيس دائرة هندسة المناظر والتخطيط الإقليمي في جامعة بنسلفانيا. وفي عام ١٩٦٩ كتب يقول: إن قصة سفر التكوين "بإلحاحها على سيادة الإنسان على الطبيعة وإخضاعها، تشجع أكثر الغرائز استثماراً

---

[1]- I have culled these facts and figures from various, e.g. the Question Mark, "The End of Homo Sapiens', by John W. Klotz (Concordia, 1972), p. 9- 43.
[2]- Rowland Moss, The Earth in Our Hands (IVP, 1982), p. 109.
[3]- Man In His Living Environment, "An Ethical Assessment", a report of the Board for Social Responsibility (Church Information Office, 1970) p. 61.
[4]- Gavin Maxwell"s article appeared in The Observer on 13 th October, 1963.
[5]- C. F. D. Moule, Man and Nature in the New Testament, "Some Reflection on Biblical Ecology" (Athlone, 1964; Fortress, 1967), p. 1.
[6]- From an article "The Historical Roots of our Ecological Crisis" in Science 155 (1967), pp. 1203- 7. It began as an address to the American Association for the Advancement of Science and has been reprinted by (among others) Francis Schaeffer in Pollution and Death of man (Hodder & Stoughton, 1970). س



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

وتدميرا بدلا من أن تشجع فيه غريزة الخلق واحترام الآخرين. بالحقيقة إذا بحث الإنسان عن إجازة لأولئك الذين يريدون أن يزيدوا النشاط الإشعاعي ويحفروا القنوات والمرافئ بالقنابل الذرية، ويستخدموا السموم دون حدود أو يذعنوا لعقلية استخدام القوة، فلا يمكن أن تكون هناك تعليمات تبيح كل ذلك أفضل من هذا النص "مشيراً إلى تكوين ١: ٢٦و ٢٨. ويتابع قائلاً: "وعندما يفهم هذا، يمكن أن يفهم الإخضاع والسلب والنهب أيضاً"[١] لأن تأكيد الله لسيطرة الإنسان كان "إعلان الحرب على الطبيعة أيضاً". وهو يختم بهذه الكلمات: "ينبغي القضاء على السيطرة والإخضاع باعتبارهما التعليمات الكتابية بشأن علاقة الإنسان بالطبيعة"[٢].

في محاضرات دننج ترست التي ألقاها إيان ملك هارج خلال العامين ١٩٧٢ ١٩٧٣ توسع في هجومه، وأرجع موقف الإنسان الغربي من العالم الطبيعي إلى "ثلاثة سطور مرعبة" في تكوين واحد تتعلق بالسلطان الذي منحه الله للإنسان. "إن السلطان علاقة غير قابلة للتفاوض" فإذا أردتم أن تجدوا نصاً واحداً من الرعب المركب يضمن أن تكون علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة تدمير تصيب بالضمور كل مهارة خلاقة وتفسر كل الدمار وكل النهب الذي قام به الرجل الغربي طوال هذه الألفي سنة على الأقل، فليس عليكم أن تنظروا إلى ما هو أبعد من هذا النص المروّع الفاجع"[٣].

لقد استخدم الدكتور ملك هارج ليبين دعواه لغة بعيدة جداً عن الاعتدال. فبعض الناس المضلّلين (كالقسيس الذي أشار إليه جيفن مكسويل) ربما حاولوا أن يدافعوا عن موقفهم غير المسؤول تجاه الطبيعة باستخدام غير مسؤول لتكوين ١. ولكن من السخف أن نصف هذا النص بأنه "مرعب" و"شنيع" و"مفجع" ثم ننسب إليه ألفي سنة من استغلال البيئة من قِبَل الإنسان الغربي. فلنُعِد النظر في النص.

صحيح أن الكلمتين العبرانيتين المستخدمتين في تكوين ١: ٢٦ و٢٨ شديدتا الوقع. والفعل المترجم "تسلطوا" يعني "دوسوا" أو "طئوا" بحيث أن الترجمة التفسيرية لمزمور ٨ هي "أخضعت كل شيء تحت قدميه"". وهي في أغلب الأحيان تُستخدم في العهد القديم في مجال التحدث عن حكم الملوك. أما الفعل الآخر "أخضعوا" فقد استُخدِم للحديث عن إخضاع الأعداء في الحرب وجعل الناس في حالة خضوع أو أسر كعبيد. وهكذا فقد أُمِرَ الإنسان بأن يحكم مخلوقات البحر والجو واليابسة (الآية ٢٦) ويستعبدوا الأرض، ليُخضعوها (الآية ٢٨) فهل كان إيان ملك هارج على حق؟ كلا إنه ليس على حق. هناك مبدأ أولي في التفسير الكتابي وهو أنه لا يجوز للمرء أن يُرسِّخ معنى الكلمات بدراسة أصلها وتاريخها فقط بل أيضاً وبخاصة بطريقة استخدامها في سياق الكلام. فما كتبته سابقاً حول هذه الوصية الكتابية وثيق الصلة بتفسير هذه النصوص. لقد رأينا أن السلطان الذي منحه الله للإنسان كان سلطاناً بالتفويض مسؤولاً ومتعاوناً. وإن المقصود منه أن يعبِّر عن نفس العناية التي يُبديها الخالق لدعم بيئته. وأنه بدلاً من

---

1 Ian L. McHarg, Design with Nature (Doubleday, 1969), p. 26.

2- Ibid. p. 197.

3 These extracts from Ian McHarg's Dunning Trust Lectures were quoted in the Ontario Naturalist, March 1973.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

أن يستثمر الإنسان الأرض ومخلوقاتها، عليه أن يستخدمها بحيث يستطيع أن يعطي له حسابا عنها ويخدم بها الآخرين. فلسنا أحراراً (كما فعل إيان ملك هارج في إحدى محاضراته) بأن تضع تك ١ و٢ الواحد مقابل الآخر كما لو كان تك ٢ عن "الرعاية" وتك ١ يعلم عن "التدمير". فالأمر على العكس لأن النصَّين يفسر أحدهما الآخر. فالسلطان الذي منحه الله للإنسان هو وكالة مسؤولة تتضمن الاقتصاد في موارد الأرض. والخالق لا يشجع تدمير ما صنعه.

**الوعي المعاصر:**

لا شك أن جيلنا قد بدأ يأخذ هذه المسؤولية مأخذ الجد. والعلماء يؤكدون التوازن الدقيق للطبيعة. لقد أنشأ الله في الطبيعة قوة استرداد وتجديد تكاد لا تُصدَّق، ولا سيما حلقة تجديد الطاقة (من الشمس إلى الأرض عبر النباتات وبعض البكتريا، ثم الكائنات المستهلكة فالبيئة). فهذا مثال عما تُسميه بربارا وارد "الوحدة الأكثر جلالاً في كوكبنا". ويرجع هذا إلى القوانين الطبيعية التي تؤدي إلى "توازن دينامي للقوى البيولوجية التي تعمل متناسقة. بفضل ضوابط وتوازنات من أكثر الأنواع دقة"[1]. يعلِّق الدكتور جون كلوتس عالِم حفظ البيئة الأميركي "هذه التوازنات والضوابط معقدة جداً بحيث يصعب أن تكون قد تطورت بمحض الصدفة"[2]. ولكن إذا نهبنا غطاء الأرض الأخضر أو دمرنا عوالق المحيطات (بلانكتون)، فسرعان ما نصل إلى نقطة اللاعودة في عملية إعادة معالجة المواد. وتعلمنا معرفتنا العلمية الحديثة الممتازة "شيئاً واحداً قبل كل الأشياء الأخرى" كما كتبت بربارة وارد "هو الحاجة إلى الحذر الأقصى"، والإحساس بالاتساع المرعب والتعقيد في القوى التي يمكن أن تنطلق والرقة المفرطة للعوامل التي يمكن أن تختل"[3].

لقد كان هناك عدد من التشجيعات في السنوات الأخيرة. ففي بريطانيا صدر قانونا الهواء النظيف عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٨ فخلَّصا لندن من الضباب القاتل الذي كان يفجرها في مطلع الخمسينات، ذلك الضباب الكثيف الذي أذكره جيداً منذ أيام حداثتي وقتل ضباب ودخان لندن عام ١٩٥٢ لأربعة آلاف شخص (معظمهم من الشيوخ). وبالمفارقة فإن ضباب ودخان طوكيو رديء جداً إلى حد آلات لبيع الأكسجين وُضِعَت على جانبي الطريق حيث تستطيع الشرطة والمشاة أن يأخذوا منها نشقات من الأكسجين، كما أن الأوربيين منشغلون حالياً بـ "الأمطار الحمضية"، أي تحميض الهواء الخطر بواسطة حرق الوقود. ثم هناك عمل اللجنة الملكية الخاصة بالتلوث التي قدمت ثمانية أو تسعة تقارير في الخمس عشرة سنة الأخيرة، تتعلق بتلوث الهواء والطاقة النووية والزراعة والنفط في البحر. لقد عُقِدَ مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة البشرية في استكهولم في حزيران ١٩٧٢، واحتفل بذكرى مرور عشر سنوات على انعقاده في ندوة دولية عُقِدَت في نفس المدينة، ومنذ عقد المؤتمر حل الاهتمام ب "صفة الحياة" محل

---

[1]- Barbara Ward and Rene Dubos, Only One Earth, "The Care and Maintenance of a Small Planet" (Penguin, 1972), p. 83.
[2]- Op. cit. p. 45.
[3]- Op. cit. p. 85.



جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

الاهتمام بمجرّد البقاء. وتعمل الحركة "الخضراء" بأحزابها البيئية تحت بصر الجمهور وسَمعِه. لقد جرت عدة تجارب لإعادة معالجة الفضلات. كما أن "مستخدمي قطع السيارات الصغيرة" يستخدمون من جديد كل القطع المعدنية والبلاستيكية في العربات المُهملة. وتقوم مرمدات البلدية (في ألمانيا والولايات المتحدة واليابان) بحرق القمامة دون تلويث الهواء. ويُستفاد من ذلك في توليد البخار الذي يُستخدم في تأمين الضوء والحرارة. ويقول المازحون إن صناعة التعليب تستخدم كل شيء ما عدا صراخ الخنازير.

يوجد بالطبع متسع لابتكارات أكثر من ذلك بكثير. فمساحة الأرض التي تتم حراثتها تعادل واحد بالمئة من مساحة اليابسة. ولو أمكن فقط اختراع طريقة أرخص وأكثر كفاءة لإزالة ملوحة مياه البحر لأمكَن، ري صحاري العالم وانقلبت رياضاً غنَّاء. إن البحر الذي يغطي ثلثي سطح الكرة الأرضية يزخر بثروات هائلة من البروتين الذي توفره الأسماك (هذا إذا لم نذكر الغاز والنفط والمكامن المعدنية). لكننا لم نتعلم بعد كيف نزرع المحيطات. وما زلنا في مرحلة الصيد البدائية. ونحن مذنبون بجرم الإفراط في الصيد أيضاً. لقد استُثمِرت أموال ضخمة في مشروع الفضاء. وأنا شخصياً لست مقتنعاً، بأي حال، بأن لدينا تفويضاً رسمياً بإنزال الناس على سطح القمر قبل إكمال مهمتنا، التي كلفنا الله بها، وهي ملء الأرض وإخضاعها.

هل هناك مساهمة مميزة يقوم بها المسيحيون في النقاش حول البيئة؟ نعم، فنحن نؤمن أن الله خلق الأرض وائتمن الإنسان عليها ليعتني بها، ونؤمن كذلك أنه ذات يوم سيخلقها من جديد عندما يصنع، سموات جديدة وأرضاً جديدة، "لأن كل الخليقة تئن وتتمخض في الزمان الحاضر" إنها تئن بسبب عبوديتها للفساد و"البطل" (الإحباط) الذي نتج عنها. إلا أنها في النهاية سوف تشارك في "حرية مجد أولاد الله"، أي أن عبوديتها ستخلي مكانها للحرية. وسيخلي فسادها مكانه للمجد وسيخلي الألم مكانه للفرح الناجم عن ولادة عالم جديد (رومية ٨: ١٩ ٢٢). فهذان التعليمان المتعلقان ببداية التاريخ ونهايته، بالخليقة والاكتمال لهما تأثير عميق على منظورنا. فهما يمنحاننا احتراماً للأرض وبالحقيقة احتراماً لكل الخليقة المادية، لأن الله هو الذي صنعها، وهو أيضاً سيصنعها من جديد.

نتيجة لذلك، نتعلم أن نفكر ونتصرف بصورة بيئية. سنتوب عن الإفراط والتلويث والتدمير الوحشي. وسنقر بأن الإنسان يجد إخضاع الأرض أسهل عليه من إخضاع نفسه. فكتاب العدو السابع من تأليف رولاند هيجنز ذو دلالة في هذا المجال. لأن "الأعداء" الستة الأولى هي: الانفجار السكاني، أزمة الغذاء، ندرة الموارد، فساد البيئة، إساءة الاستعمال النووي والتكنولوجيا العلمية. أما العدو السابع فهو الإنسان نفسه بعَماه الشخصي وجموده السياسي في وجه تحديات البيئة اليوم. لهذا فإن العنوان الفرعي لكتاب رولاند هيجنز هو "العامل البشري في الأزمة العالمية". إن الإنسان بحاجة إلى وعي ذاتي جديد ورؤيا جديدة وإعادة يقظة لقدراته الأخلاقية والدينية[1] فهل هذا ممكن؟ نعم، والمسيحيون مقتنعون به. إن أحد

[1]- Ronald Higgins, The Seventh Enemy (1978).



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

المزايا الخاصة لكتيب البروفيسور كلاوس بو كمول الذي عنوانه "صيانة البيئة وطراز الحياة" هو أن يتخطى "المعايير المسيحية" والمتعلقة بالمسؤلية البيئية ليبحث في "الدوافع المسيحية". وفي استنتاجه يخاطبنا بإلحاح بقوله: إن "المطلوب من المسيحي اليوم هو الدافع أو الحافز على الخدمة الغيرية التي ميزت ذات يوم التراث المسيحي. ينبغي أن نكون رواداً في العناية بالجنس البشري... وينبغي أن نبين من أين تأتي القوة والمنظور لمثل هذه المساهمة. علينا أن نعطي أمثلة للآخرين". وعلينا أن "نوقظ من جديد لب أخلاق الإنجيل"[1].

إن السبب الأساسي لأزمة البيئة كامن في جشع الإنسان، وهو ما دُعي "الربح الاقتصادي على حساب الخسارة البيئية" والمسألة في غالب الأحيان مسألة تنافس بين المصالح التجارية (مع أن بعض الشركات المتعددة الجنسيات لديها قسم بيئي". وإنه لأمر منطقي تماماً أن يدفع المستهلك ثمن الإنتاج الخالي من التلوث، سواء بدفع أسعار مزيدة، أو ضرائب جديدة (من خلال إعانة مالية حكومية للصانع). وعلى المسيحيين ألا يتذمروا من هذا إذا كان ثمناً للوكالة البيئية المسؤولة.

وعلى المسيحيين أيضاً حتى أثناء النقاش الحالي المستمر حول حدود النمو أن يشهدوا للحقيقة التي تبرهن عن ذاتها وهي أن موارد الأرض ليست غير محدودة. كتب الدكتور جون كلوتس منذ عشر سنوات قائلاً: إن "العلم لا يستطيع أن يجد طريقة لنشر مستوى معيشة الإنسان الغربي الحديث على كل الكرة الأرضية"[2]. وربما تقرّب شريحة السيليكون هذه الإمكانية. ولكن طالما بقي التفاوت الواسع بين الغنى والفقر فسيظل المسيحي غير مرتاح الضمير. ينبغي أن نتجنب بحماس كل تبديد ليس فقط في سبيل التضامن مع الفقراء ولكن أيضاً بدافع احترامنا للبيئة الحية.

[1]- Klaus Bockmuhl, Conservation and Lifestyle (1975, translated by Bruce N. Kaye. Grove Books, 1977), pp. 23- 24.
[2]- Ronald Higgins, ibid. p. 5.



ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل